آداب الخطابة

١ - تحضيرُ الخطبةِ .
٢ - عناصرُ الخطبةِ .
٣ - الإلهامُ.
٤ - حُسْنُ الافتتاح .
٥ - تقويم اللسان .
٦ - الصَّوتُ .
٧ - الإشارة .
٨ - التعبيرُ .
٩ - الأسلوبُ .
١٠ - الشعرُ .
١١ - السَّجْعُ .
١٢ - الأهْواءُ والميولُ، والأمورُ المثيرة لها، وهي:
أ - اعتقادُ الخطيبِ بصحَّةِ ما يدعو إليه .
ب - المشاركةُ الوجدانيَّةُ .
جـ - اللَّذَّةُ والألمُ .
د - الغرائزُ .
هـ - بواعثُ الانتباه .
و - التِّكرار والتَّوكيدُ .
١٣ - البَدَاهَة .
١٤ - الختامُ .

١- تحضير الخطبة

لابُدَّ لك - عزيزي الخطيب - من تهيئة نَفْسكَ للتَّحْضير بإفراغها من الشَّواغلِ ؛ حتَّى تكونَ نيَّتُكَ صافيةً ، ورغبتُكَ قويَّةً ؛ فإنَّ الأمرَ الشاغلَ مانعٌ لك من سَدَاد الرَّأي ، وتَسَلْسُلِ الأفكار .

قال أبو تمَّام لأبي عَبَادَةَ البُحْتُريِّ: «يا أبا عبادةَ، تخيَّرْ الأوقاتَ وأنت قليلُ الهُمُوم، صفرٌ [١] من الغُمُوم، واعلمْ أنَّ العادةَ في الأوقات إذا قَصَدَ الإنسانُ تأليفَ شيْءٍ أو حفْظَهُ - أَنْ يختارَ وَقْتَ السَّحَرِ؛ وذلك أنَّ النَّفْسَ تكونُ قد أخذت حَظَّها من الرَّاحة، وقسْطَهَا من النَّوم، وخفَّ عليها ثقَلُ الغذَاء. واحذرْ المجهولَ من المعاني، وإيَّاكَ أنْ تَشِينَ شعْرَكَ بالألفاظ الوحشيَّة، وناسبْ بَيْنَ الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام، وكُنْ كأنَّك خيَّاطٌ، تقدِّرُ الثيابَ على مقادير الأجسام.

وإذا عارضك الضَّجَرُ، فَأَرِحْ نَفْسَكَ، ولا تعملْ إلاَّ وأنت فارغُ القَلْبِ، ولا تَنْظِمْ إلاَّ بشَهْوة؛ فإنَّ الشَّهْوَةَ نِعْمَ المُعينُ على حُسْنِ النَّظْمِ.

وجملة الحالِ أَنْ تعتبرَ شعْرَكَ بما سلَفَ من أشعار الماضين، مما استحسن العلماءُ فاقْصدْهُ، وما استقبحوهُ فاجْتَنِبْهُ»[٢].

وعليك بتنقيح كلامك ، وتنقيته من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، والآراء الشاذَّة ، والأقوال المرجوحة .

وما أحسن ما أشار أبو تمَّام إلى التَّهذيب بقوله :

خُذْهَا ابْنَةَ الفكْرِ المُهَذَّبِ في الدُّجَى[٣] واللَّيلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ الجِلْبَابِ![٤]

---

(١) **صفرٌ - بتثليث الصَّاد** - : خالٍ ، جمعه أصفار.

(٢) «جواهر الأدب» لأحمد الهاشمي (ص٢٣).

(٣) **الدُّجى** : الظُّلَمات ، والمفرد دجية .

(٤) «جواهر الأدب» (ص٢٢) .

٢- عناصر الخطبة

لا شكَّ أنَّ تقسيمَ الخُطْبة وقايةٌ للخطيب من الهَذر، والخروجِ على الموضوعِ، وتكرارِ المعاني، ويعودُ على السَّامعين بتسهيلِ إدراكِ الموضوعِ، وترويحِ خاطِرِهم، فينشطون للسَّماع بالانتقال من قسمٍ إلى آخر كسلسلةٍ متَّصلةِ الحَلَقَاتِ.

وصفات التَّقسيم الحَسَنِ:

١- التَّعريف .

٢- الصِّفات .

٣- الثَّمرة .

فإذا كانتِ الخطبةُ حولَ التَّقْوى - على جادةِ المثالِ - فيكون التَّحضير كالآتي:

١- تعريفُ التَّقوى .

٢- صفات المتَّقين .

٣- ثمرة التقوى .

وقد يكون التحضير مبتكراً، فصفات تقسيمه:

١- المظاهر.

٢- الأسباب .

٣- العلاج .

فإذا كانتْ الخطبةُ حولَ الاختلاطِ - على جادةِ المثالِ - فيكون التحضير كالآتي:

١- مظاهرُ الاختلاطِ .

٢- أسبابُ الاختلاطِ .

٣- عِلاج الاختلاطِ .

٣- الإلهام

الإلهام: هو ما يقع في القلبِ من سَدَادٍ في الرَّأْي ، وانفجارِ معلوماتٍ سَبَقَ لك دراستُها من زمانٍ بعيدٍ، ولم تتوقعْ انفجارَها .

وكُلَّما أخلصَ الجُمْهُورُ في الإقبالِ والاستماعِ للخطيبِ، كانَ الخطيبُ أكثرَ إبداعًا ، كما قَالَ الخطيبُ البغداديُّ – رحمه الله – : « نشاطُ القائلِ على قَدْرِ فَهْمِ المُسْتَمِعِ » (١) .

وقال أبو عباد – رحمه الله – : « نشاطُ المُحَدِّثِ على قَدْرِ فَهْمِ السَّامعِ » (٢) .

وقد يستغربُ الخطيبُ الذي لم يُحَضِّرِ الخُطْبَةَ كيف تَنْسَابُ الأدلَّةُ كالسلسبيلِ مَعَ مُراعَاةِ الحالِ، والزَّمانِ، والمكانِ، وكيف استطاعَ أَنْ يستحضرَ الأدلَّةَ وكأَنَّه يقرأُ في كتابٍ .

ولكنْ ذلك ليس بغريبٍ على مَنْ عرفَ الإلْهَامَ، فالإلهامُ حَقٌّ، وعرَّفَهُ العلماءُ أَنَّه: وَحْيٌ باطنٌ، وإنَّما حرم العاصي لاستيلاءِ وَحْيِ الشَّيْطانِ عليه (٣) .

قال السمعانيُّ : « ونحن لا نُنْكِرُ أَنَّ اللهَ يُكْرِمُ عَبْدَهُ بزيادةِ نورٍ منه، يزدادُ به نظرُه، ويقتدي به رأْيُه ، وإنَّما نُنْكِرُ أَنْ يرجعَ إلى قلْبِه بقولٍ لا يعرفُ أَصْلَه ، ولا نَزْعُمُ أَنَّهُ حُجَّةٌ شرعيَّةٌ، وإنَّما هو نورٌ يَخْتَصُّ اللهُ به مَنْ يشاءُ من عبادِه، فإنْ وَافَقَ الشَّرْعَ كانَ الشَّرْعُ هو الحُجَّةَ » (٤) .

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي» (١/٣٣١) .

(٢) «زهرة الأدب» للحصري .

(٣) انظر «مجموع الفتاوى» (٢٠/٤٢ – ٤٧) ، و«جامع العلوم والحكم» (٢/١٠٢ – ١٠٤) .

(٤) «فتح الباري» (١٢/٣٨٩) .

٤ - حُسْنُ الافتتاح

حسن الافتتاح : هو ما يُسَمِّيه علماءُ البلاغة ببراعة الاستهلال ، وهو أن يكونَ الابتداءُ لائقًا بموضوعِ الخطبة ، فعلى الخطيب أنْ يعتنيَ بها تمامَ العناية، وأنْ يزيِّنَها بكُلِّ وسائل التَّجميل التي تجذبُ الأفكارَ ، وتُهيِّئُ الأسماعَ ؛ فقد قيلَ : « خيرُ الكلامِ ما شوَّقَ أوَّلُه إلى سَماعِ آخره » .

قالَ ابنُ الأثيرِ في « المثل السائر » : « وإنما خُصَّتْ الابتداءاتُ بالاختيارِ؛ لأنَّها أوَّلُ ما يَطْرُقُ السَّمْعَ من الكلامِ ، فإذا كان ذلك الابتداءُ لائقًا بالمعنى الوارد بعدَه ، توافرتْ الدَّواعي على استماعه ، ويَكْفيك منْ هذا البابِ الابتداءاتُ الواردةُ في القرآ الكريم : كالتَّحميدات المُفْتَتَح بها أوائلُ السُّوَر ، وكذلك الابتداءات بالنِّداء : كقوله - تعالى - في أوَّل سورة الحجِّ : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمْ إنَّ زلْزَلَة السَّاعَة شيءٌ عظيمٌ ﴾ [الحجِّ : ١] ؛ فإنَّ هذا الابتداءَ ممَّا يُوقظُ السَّامعين للإصغاء إليه » .

ونقلَ الجاحظُ عن ابن المُقَفَّع قولَهُ : « ولْيَكُنْ في صَدْرِ كلامك دليلٌ على حاجتك ، كما أنَّ خيرَ أبيات الشِّعْرِ البيتُ الذي إذا سَمِعْتَ صَدْرَه، عرفت قَافيَتَهُ (كأنه يقول : فرِّقْ بينَ صَدْرَ خُطْبَة النِّكاحِ ، وبَيْنَ صَدْرِ خُطْبَة العيد ، وخُطْبَة الصُّلح ، وخُطْبَة المواهب) ؛ حتَّى يكونَ لكُلِّ من ذلك صَدْرٌ يدلُّ على عَجُزِه ، فإنَّه لا خيرَ في كلامٍ لا يدلُّ على معناه ، ولا يُشيرُ إلى معزاه، ولا إلى العمودِ الذي إليه قَصَدْتَ ، والغرضِ الذي إليه نزعتَ » .

ويُسْتَحْسَنُ في الافتتاحِ أمورٌ ، منها :

١ - أنْ يكونَ قصيراً مُوْجَزًا ، ما دام في الإيجازِ وفاءٌ بالغرضِ .

٢- ألاَّ يكونَ مُبْتَذَلاً مُشاعًا ، تَمُجُّه الأسماعُ ، وتنفرُ منه الطِّباعُ .

٣- أنْ يكونَ موافقًا للموضوع ، مُلتئمًا معه .

وأنواعُ الافتتاح أربعةٌ :

١- السَّهْلُ .

٢- الجَزْلُ .

٣- البَديهيُّ .

٤- المُلَوَّحُ .

فالسَّهْلُ : ما يبين فيه الموضوعُ بلا تكلُّفٍ ، ويَصْلُحُ للخُطَبِ المألوفة .

والجَزْلُ: ما كان أنيقَ اللَّفْظ، شريفَ المعنى، ويَصْلُحُ للنَّوازِلِ[1] المهمَّة، إذْ يَتوقَّعُ الجُمْهُورُ ما يَكْشفُ عن عَظَائِمِ الأُمورِ ، كَقول أبي بَكْرٍ - رضي الله عنه - : « أيُّها الناسُ ، مَنْ كان يَعْبُدُ محمَّدًا ، فإنَّ محمَّدًا قد مات ، ومَنْ كان يعبدُ اللهَ، فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ »، ثُمَّ تلا الآيةَ : ﴿ وما مُحمَّدٌ إلاَّ رسولٌ قد خلت من قبلِه الرسل ﴾ [آل عمران : ١٤٤] [2] .

والبَديهيُّ : ما أصابَ السَّامعَ على غيرِ انتظارٍ ، وأَبْرَزَ عن حميمِ العواطف، والقلوب المتأَلِّة ، ومقامه الوقائعُ الباغتةُ ، والطوارئُ المُفْجِعةُ .

والمُلَوَّحُ - أو المُعَرَّضُ - في اللُّغة : خلافُ المُصرَّح.

وفي الاصطلاح : ما يَخْرُجُ مَخْرَجَ الكنايةِ أو التَّعريضِ ، ويُسْتَعْمَلُ في سياسةِ النُّفوسِ النَّافرةِ ، وترقيقِ القلوبِ العاتيةِ المتكبِّرةِ (الجبَّارةِ) [3] .

---

(١) **النَّوازل** : جمع نازلة، وهي المصيبة.

(٢) رواه البخاريُّ في الفضائل (٣٦٦٨) .

(٣) « فنُّ الخطابة » (ص٥٣) بتصرُّفٍ .

٥- تقويم اللِّسانِ

ما أجملَ أَنْ يتعلَّمَ الخطيبُ مِنْ لسانِ العربِ ما يجلو به الشُّبَهَ ! ، فينطق بالكلمات بلا عُجْمةٍ ولا لحْنٍ ، صحيحةً في مخارجها ، صادقةً في جرسها ؛ فإنَّ اللَّحْنَ يَذْهبُ برونقِ الخُطْبةِ، وبهائِها ومَضائِها .

قال ابن بسَّامٍ :

فَلاَ تَعْدُ إصْلاَحَ اللِّسَانِ ؛ فَإِنَّهُ ... يُخْبِرُ عَمَّا عِنْدَهُ وَيُبَيِّنُ
وَيُعْجِبُنِي زَيُّ الفَتَى وَجَمَالُهُ ... وَيَسْقُطُ مِنْ عَيْنِي سَاعَةَ يَلْحَنُ
عَلَى أَنَّ لِلإِعْرَابِ حَدّاً ، وَرُبَّمَا ... سَمِعْتُ مِنَ الإِعْرَابِ مَا لَيْسَ يَحْسُنُ
وَلاَ خَيْرَ فِي اللَّفْظِ الكَرِيهِ سَمَاعُهُ ... وَلا فِي قَبِيحِ الظَّنِّ بِالفِعْلِ أَحْسَنُ

وقد حثَّ السَّلفُ على تعلُّمِ العربيَّةِ ؛ لأنَّها سِرُّ نباهةِ الخطيبِ ، ومن أشرفِ العلومِ.

قال الشافعيُّ – رحمه الله – : « ينبغي لكُلِّ أَحَدٍ يقدرُ على تعلُّمِ العربيَّةِ أَنْ يَتعَلَّمَها ؛ لأنَّها اللِّسان الأَوْلى » (١) .

وقال الماوَرْديُّ : « ومعرفةُ لسانِ العَرَبِ فرضُ عينٍ عَلَى كُلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ من مجتهدٍ وغيرِه » (٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة – رحمه الله – : « واعلمْ أنَّ اعتيادَ اللُّغة يُؤَثِّرُ في العَقْلِ والخُلُقِ تأثيراً قوياً ، ويؤثِّرُ – أيضاً – في مُشَابهةِ صَدْرِ هذه الأُمَّةَ مِنَ الصَّحَابة والتَّابعين ، ومُشَابهتُهم تَزيدُ في العَقْلِ ، والدِّينِ ، والخُلُقِ، وأيضاً

(١) « اقتضاء الصراط المستقيم » لابن تيميَّةَ (١/٤٦٤) .
(٢) « إرشاد الفحول » لشيخ الإسلام الشوكانيِّ .

فإنَّ نفسَ اللُّغة العربيَّة من الدِّين ، ومعرفتُها فرضٌ واجبٌ ؛ فَإنَّ فَهْمَ الكتاب والسُّنَّة فَرْضٌ ، ولا يُفْهَمُ إلا بِفَهْمِ اللُّغةِ العربيَّة ، وما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ » [١] .

ولعلَّ قائلاً يقول: إنَّ العاميَّة ضرورةٌ لازمةٌ لمخاطبة النَّاس على قَدْرِ عُقُولهم!.

فالجواب عليه : قال الدُّكتور فتحي جمعة أستاذ العلوم اللُّغويَّة بكُلِّيَّة دار العلوم بالقاهرة – حفظه الله – : « إنَّ المُخَاطبةَ على قَدْرِ العُقُول لا تَعْني تبذُّلَ اللُّغَة ، أو هُبُوطَ الكلام ، وانحرافَهُ عن سُنَنِ الفُصْحَى ؛ وإنَّمَا تَعْني الابتعادَ عَنْ تعقيدِ الفِكْرَة ، والتَّقَعُّرِ في اللُّغة – أي تَعَمُّد اختيار الصَّعْب من التركيب ، والغريب الوحشيِّ من الكلام – .

أمَّا الجُنُوحُ إلى العاميَّة بدعوى إفهامِ العوامِّ ، فإنْ لم يكن مُدَاراةً للعجز عن الفصحى ، وقِصَرِ الباعِ في استعمالها – فهو ادِّعاءٌ يَظْلِمُ الفصحى ، والعوامَّ في وقتٍ معًا ! .

يظلمُ الفُصْحَى بأنَّها غيرُ مفهومةٍ ، ووالله ، إنَّها لمفهومةٌ ، ويظلمُ العوامَّ بأنَّهم لا يفهمون ، وتالله ، إنَّهم لَيَفْهمون ، وإلاَّ فكيف يخشعون للقرآن ، ويتأثرون ببالغِ الموعظة ، وجميلِ البيان ؟! » [٢] .

جَمِّلِ المَنْطقَ بالنَّحْوِ ، فَمَنْ ... يُحْرِمِ الإعْرابَ في النُّطْقِ اخْتَبَلْ

فَاللِّسَانُ العَضْبُ [٣] سَيْفٌ مُصلَّتٌ ... كَمْ بِسِحْرٍ مِنْ حَدِيثٍ قَدْ قَتَلْ !

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم » (١/٤٦٨) .

(٢) « أدب التخاطب » لمصطفى العدويّ (ص٤٧) .

(٣) **العَضْبُ** : القاطع .

٦ـ الصَّوْت

قد تَسْمعُ قارئًا ، أو مُحدِّثًا ، أو خطيبًا ، فَتَشْعُرُ بنغماته تُثيرُ ارتياحَكَ ، وبرنينه يَهُزُّ إحساسَكَ ، وبعمقه يَصِلُ إلى أبعد غَوْرٍ[1] في نَفْسك ، وقد تسمعُ منه أَجملَ العبارات الدَّالَّة على المعاني ، وقدْ يكونُ الشَّخْصُ الذي تستَمعُ إليه من صِغارِ طَلَبَة العلْم ، فدلَّ ذلك على أنَّ للأصوات أثرًا كبيرًا في حُسْنِ وَقْعِ الكلامِ أو قُبْحِه ، فالخُطْبَةُ دُونَ جودة الأداء جِسْمٌ لا روحَ فيه ، فالصَّوْتُ يُعطي الألفاظَ قوَّةً وحياةً ، كما قيل :

« هَذَا الكَلاَمُ الَّذي مَا قَالَهُ أَحَدٌ ... وَلاَ تَلاَ مِثْلَهُ في الجمعِ سَحْبَانُ[2]
عَلَيْهِ مِنْ حُلَلِ الأَنْوَارِ أَرْدِيَةٌ ... فَكُلُّ قَلْبٍ مِنَ الأَشْوَاقِ نَشْوَانُ
يصدعُ الصَّخْرَ في زجرٍ ومَوْعِظَةٍ ... وفي البشَارَةِ رَوْضٌ فِيهِ رَيْحَانُ!»

وشأنه في الخطابة لعظيم ، فكم من خطبةٍ يحسن الرجل إلقاءها ، فيجد الناس في سماعها من الارتياح وهزة الطَّرب فوق ما يجدون عندما يقرءونها في كتاب .

« قُمْ خاطب الدُّنْيا بنبْرَتكَ التي ... عَرَفَتْ قُلوبَ الأَهْلِ والأَصْحاب
فَمَنَابرُ التَّوْحيدِ مِنْ خُطَبائِهَا ... ومَحَافِلُ العَلْيَاءِ للخُطَّاب»

وممَّا يزيدُ الخُطْبَةَ بهاءً وجمالاً جَهَارَةُ الصَّوت ، فعن جابرٍ - رضي الله عنه - قال: « كان رسولُ الله - ﷺ - إذا خَطَبَ احْمرَّتْ عَيْنَاهُ ، وَعَلا صَوْتُه ، واشتدَّ

(١) **الغَوْر** : القَعْرُ من كلِّ شيْءٍ، جمعه أغوار.

(٢) هو سَحْبَانُ بن زُفَر بن إياد الوائليُّ ، الخطيب المصْقَع، المضروب به المثلُ في البلاغة والبيان، نشأ في الجاهليَّة، ولمَّا ظهر الإسلامُ أسلم، وتقلَّبَتْ به الأحوالُ حتَّى التحق بمعاوية، فكان يُعِدُّه للمُلِمَّات، ويتوكَّأ عليه عند المفاخرة.

غضبُه ، حتى كأنه منذرُ جيشٍ يقولُ :«صبَّحكُم ومسَّاكم» ، ويقول :«بُعثْتُ أنا والسَّاعةُ كهاتين » ، ويقرنُ بين إصبعيه السَّبابة والوُسطى»[١] .

أنتَ كَنْزُ الدُّرِّ واليَـاقُـوتِ في لجُّةِ[٢] الدُّنيـا ، وإنْ لَم يَعْرِفُوكَـا
مَـحْـفَلُ الأيَّامِ في شَـوْقٍ إلى صَوْتِكَ العالي ، عَسَاهُمْ يَسْمَعُوكَا!

قال قُدامةُ بْنُ جَعْفَرٍ : « ومِمَّا يزيد في حُسْنِ الخَطَابة ، وجَلالَة مَوْقعها جَهَارةُ الصَّوْت ؛ فإنَّه من أجلِّ أوصاف الخُطَباء ؛ ولذلك قال الشاعر :

جَـهِـيـرُ الكَلَامِ، جَـهِـيـرُ العُطَاسِ شَـدِيدُ النِّيـاطِ[٣] ، جَـهِـيـرُ النَّغَمْ

وقال آخرُ:

إنْ صَاحَ يَوْمًا حَسِبْتَ الصَّخْرَ مُنْدَحِرًا والرِّيـحَ عَاصِـفَةً، والمَـوْجَ يَلْتَـطِمُ!

وذمَّ آخرُ بعضَ الخُطَبَاء برقَّة الصَّوت وضآلته ، فقال :

ومِنْ عَجَبِ الأيَّـامِ أنْ قُـمْتَ خَاطِبًا وأنْتَ ضَئِيلُ الصَّوتِ مُنْتَفِخُ السَّحْرِ[٤][٥]

فإذا كان الأمرُ كذلك ، فعلى الخطيب أنْ يجعلَ من المران دواءً للعيوب الصَّوْتيَّة، وأنْ يجعلَ صوتَه ناقلاً صادقًا لمشاعر نفسه ، حاكيًا صادقَ الحاكية لمعاني الوِجْدَان ، وأنْ يُشكِّلَ صوتَهُ بأشكالٍ صوتيَّةٍ مُصوِّرةٍ للمعاني ، كأنَّ

---

(١) صحيح البخاريِّ مع الفتح (٥٣٠/٨ ، ٤٥١/٩ ، ٢٩٩/١١) ، ورواه مسلم في الجُمُعة (٨٦٧)، والنَّسائيُّ في صلاة العيدين (١٥٧٩) وابن ماجه في السُّنَّة (٤٥) ، وأحمد في مسنده (٣٠٨/٤، ٩٢/٥، ١٠٣، ١٠٨) ، والحاكم في مستدركه ، وابن حبَّان في صحيحه . قلت : وفي الحديث جواز الإشارة في الخطبة كما يدلُّ عليها الحديث .

(٢) **اللُّجَّة** : معظم الماء ، ومنه : هو لجَّةٌ واسعةٌ : أي شبيهٌ بالبحر في سَعَته.

(٣) **نياط القلب** : عِرْقٌ غليظٌ نيطَ به القلبُ إلى الوتين .

(٤) **انتفخ سَحْرُهُ** – بفتح السين – أي : عدا طوره ، وجاوز قدرَه ، ومن معاني السَّحْر – أيضًا – الرِّئة، يقول : إن رئته سدت فراغ صدره ؛ فضئل صوته .

(٥) « نقد النثر » (ص ١٠٩) .

يجعلَ الجُمَلَ الاستفهاميَّةَ تختلفُ نَغمَةُ إلقائها عَنْ الجُمَلِ التي للتمنِّي ، وهكذا يُعْطي ألفاظَ الاستفهامِ ، والتَّعَجُبِ ، والتَّوْبيخِ ، واللَّوْمِ ، والتقريعِ ، والزَّجْرِ ، والتَّفْخيمِ ، والتهويلِ ، والتحزُّنِ والنَّدمِ ، والحيرةِ ، والوعد ، والوعيد ، وما إلى ذلك – حقَّها من النُّطْقِ ، فَيُكَيِّفُ الصَّوْتَ فيها بكيفيَّاتٍ خاصَّةٍ، وانفعالاتٍ تتناسبُ مع المعنى الذي يقصدُ ؛ حتَّى يُثيرَ في نفس السامع الرغبةَ والرهبةَ، والانزعاجَ والنَّدمَ ، ويُحْدِثَ فيها هزَّةَ الفَرَحِ والارتياحِ تبعًا لسير المعنى الذي يتكلم فيه .

« وأنْ يَخْفِضَ مِنْ صَوْتِه في موضعِ الخَفْضِ واللِّين ، ويشتدَّ في موضع الشِّدَّة ، ويتأفَّفَ في موضعِ التَّأفُّف ، ويتطامن في موضع التطامن : كالدُّعاءِ والاستعطافِ ، والاسْتِرْحَام، وأنْ يشمخَ بأَنْفِه ، ويُظْهِرَ العزَّةَ وعُلُوَّ النَّفْس في موضعِ الفَخْرِ والحَمَاسَة ، وذِكْرِ شَرَفِ العِلْمِ والتَّقْوَى ، وأنْ يتأثَّرَ حتَّى يَظْهَرَ أَثَرُ الانفعالِ المعتدلِ في صَوْتِه ، وإشارتِه ، وملامحِ وَجْهِه عِنْدَ ذِكْرِ حادثةٍ مُؤْلِمةٍ ، أو حكايةِ خَطْبٍ [١] فظيعٍ ؛ حتَّى تكونَ لَهْجَتُه في جميعِ ذلك لهجةَ خطابةٍ ، لا لهجةَ تلاوةٍ ، يسردُ فيها الكلامَ سَرْدًا ، أو لهجةً ترنُّميَّةً تُخْرِجُهُ عَنِ المألوفِ إلى نَوْعٍ من الأغاني » [٢] .

(١) الخَطْبُ : الأمرُ العظيم المكروهُ، جمعه خُطُوب.
(٢) انظر « فنُّ الخطابة » (ص٦٦) .

٧ - الإشارة

هي حركاتٌ تبدو من جسم الخطيب، ووجهه ، ويديه ، ورأسه ، وجوارحه، وحُسنها من تمام حُسن البيان ؛ ولهذا قيل : « ربَّ إشارةٍ أبلغُ من عبارة » .

وقد ورد في السُّنَّة أنَّ الرَّسول - ﷺ - استخدم يديه في شرح بعض المعاني، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : صلَّى لنا النبيُّ - ﷺ - ، ثُمَّ رقي المنبر، فأشار بيده قبل قبلة المسجد ، ثُمَّ قال : « لقدْ رأيتُ - الآن منذُ صلَّيتُ لكُم الصَّلاة - الجنَّة والنَّار مُمثَّلتين في قبلة هذا الجدار ، فلمْ أرَ كاليوم في الخير والشَّر » ثلاثاً [١] .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنَّ رسولَ الله - ﷺ - ذكر رمضان، فضرب بيديه فقال : «الشَّهرُ هكذا وهكذا وهكذا (ثُمَّ عقد إبهامه في الثَّالثة)، فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإنْ أُغمي عليكُمْ، فاقْدُروا لهُ ثلاثين » [٢] .

قال النَّوويُّ - رحمه الله - :

« وفي هذا الحديث جوازُ اعتماد الإشارة المُفهمة في مثل هذا » [٣] .

« وما من شكٍّ أنَّ الإشارة ضرورةٌ للخطيب ، فبها يُحرِّك الانتباه ، ويصل إلى ما ينبغي من التأثير ، ولأنَّ الصَّوت وحْده لا يكفي للإفادة والإقناع ، والتعبير عن معاني اللَّذَّة ، والألَم ، والغضب ، والرِّضى ، واليأس ، والرَّجاء ، والاحتقار ، والتَّوقير ، وما إلى ذلك ما لم تساعده حركات اليد ، وملامح الوجه، وبريق العينين ، وإشارة الطَّرف والحاجب » [٤] .

---

(١) رواه البخاريُّ في الرِّقاق (٦٤٦٨) ، ومسلمٌ (٢٣٥٩).

(٢) رواه البخاريُّ (١٩٠٨) ، ومسلم (١٠٨٠) ، وأبو داود (٢٣١٩) ، والنَّسائيُّ (٢١٤٣) ، أخرجوه جميعاً في كتاب الصِّيام ، ورواه أحمد في مسنده .

(٣) «شرح النووي على مسلم» (٢٦٨/٧) .

(٤) انظر « فنُّ الخطابة » (ص٦٧) .

قال الجاحظُ : « الإشارةُ واللَّفْظُ شريكان ، ونِعْمَ العَوْنُ هي له ، ونِعْمَ التَّرْجَمَةُ هي عنْهُ ، وما أكثرَ ما تنُوبُ عَنِ اللَّفْظ ، وتُغْني عن الخطِّ » [١] .

ويستحسنُ في الإشارةِ أمورٌ ، منها :

- أنْ تكونَ الإشارةُ أنيقةً ، حَسَنَةَ الدَّلالة .
- أنْ تكونَ موافقةً للمعنى ، وسابقةً عليه ، مُمهِّدةً له .
- أن تكونَ سَريعةً ، كُلَّما كان الكلام حادّاً مُلْتَهِباً .
- يجبُ الإقلالُ منها في الكلامِ المألوفِ ، أمَّا في الحماسَةِ وغيرِها من مُثيراتِ العواطف ، فالإشارةُ لابدَّ منها .
- ألاَّ يُكَرِّرَهَا ؛ فإنَّ في تكْرَارِها ما يدعو إلى السَّأَم ، كما لا يصحُّ الإكثارُ منها؛ فإنَّ ذلك يُذْهِبُ بسَمْتِ [٢] الخطيب وروائه .
- ألاَّ يُظْهِرَ التَّكلُّفَ والتَّصنُّعَ لها .

ظهر لي فيما بعد : أنَّ المشروعَ في الخُطْبَةِ هو الإشارة بالأَصْبعِ[٣] لا الإشارة باليَد؛ لحديث عمارة بن رويبة – رضي الله عنه – أنَّه رأى بشر بن مروان على المنبرِ رافعاً يديه، فقال: «قبَّحَ الله هاتين اليدين ؛ لقد رأَيْتُ رسول الله ﷺ ما يزيد على أنْ يقولَ بيده هكذا، وأشار بأصبعه المسبحة» [٤] .

قال النَّوويُّ – رحمه الله – : «هذا فيه أنَّ السُّنَّة أنْ لا يرفَعَ اليدَ في الخُطبَة» [٥] .

وأشار إلى ذلك ابن القيم – رحمه الله – حيث قال: في بيان هديه ﷺ في خُطبة الجمعة : «وكان يُشير بأصبعه السباب في خطبته عند ذكر الله»[٦].

---

(١) «البيان والتبيين » للجاحظ .

(٢) **سَمْتُ الخطيب** : هيئته ومَظْهَره .

(٣) انظر «روضة الطَّالبين» (٣٣/٢) ، و«كشف القناع» (٣٦/٢) .

(٤) رواه مسلم (٨٧٤).

(٥) «شرح صحيح مسلم» (١٦٢/٦) .

(٦) «زاد المعاد» (٤٢٨/١).

٨- التَّعْبير

هو تصويرُ المعاني بالألفاظ التي تُناسبُها ، فاللَّفْظُ هو الذي يُظْهِرُ المعاني ويُجَمِّلُها ، ويُبديها في رداءٍ بهيٍّ ، ورونقٍ بديعٍ .

ولقوَّة التعبير سُلْطانٌ ساحرٌ في النُّفوسِ ، فكم من حقٍّ ضاعَ لسُوءِ التعبيرِ عنه ، وكم من باطلٍ ظهر ؛ لأنَّ الَّذي يدعو إليه فصيح بليغ .

قال الشاعر :

في زُخْرُفِ القَوْلِ تَزْيينٌ لِبَاطله ... والحَقُّ قَدْ يَعْتَريه سُوءُ تَعْبيرِ

تقولُ: هَذا مُجَاجُ[1] النَّحْلِ، تَمْدَحُه ... وَإِنْ ذَمَمْتَ ، فَقُلْ : قَيْءُ الزَّنَابيرِ

مَدْحًا وذَمّاً ، ومَا غَيَّرْتَ مِنْ صِفَةٍ ... سِحْرُ البَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ!

قال ابنُ الأثيرِ في « المثل السائر » :

« ومَنْ له أَدْنَى تأمُّلٍ يعلمُ أنَّ للألفاظِ في الأُذُن نَغْمةً لذيذةً كنَغم الأوتارِ ، وصوتاً مُنْكَرًا كصَوْتِ الحمارِ ، وأنَّ لها في الفَمِ – أيضاً – حلاوةً كحلاوةِ العَسَلِ، ومرارةً كمرارةِ الحَنْظَلِ ، وهي على ذلك تجري مجرى النَّغمات والطُّعوم» .

فما أجملَ أنْ يَعْتَنيَ الخطيبُ باللَّفْظ ، ويعمدَ إلى تجميله وتحسينه ، حتَّى يَبْدُوَ التَّحسينُ طبيعيّاً من غير تَكَلُّفٍ ظاهرٍ ؛ لأنَّ التَّكلُّفَ إذا ظَهَرَ ثَقُلَ على النَّفْسِ ! .

فعن عبد الله بن عَمْرٍو – رضي الله عنهما – قال: قال رسولُ الله – ﷺ – : « **إنَّ اللهَ يُبْغِضُ البَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِه، كما تَتَخَلَّلُ**[2] **البَقَرَةُ بِلِسَانِهَا**»[3] .

---

(١) **المُجاج** : ما سال من الفَمِ.

(٢) أي تلفُّ بلسانها لفّاً .

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٥٠٠٥) ، والتِّرمذيُّ في الأدب (٢٨٥٣) ، وأحمدُ في مسنده (١٦٥/٥و ١٨٧) ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٨٧٥) ، وفي « الصَّحيحة » (٨٨٠) .

« ووَجْهُ الشَّبَه إدارةُ لسانه حَوْلَ أسنانه وفَكِّه حَالَ التَّكلُّم كما تفعلُ البَقَرةُ بلسانها حَالَ الأَكْلِ ، وهذا كُلُّه ما كان على جِهَةِ الإعجابِ والتعاظُم»[١] .

وليس معنى ذلك ألاَّ يَحْرِصَ المَرْءُ على حُسْنِ مَنْطقه ، ورَشَاقَة لَفْظه ، وجودة عباراته ؛ وإنَّما المقصودُ ألاَّ يُغْرِقَ في التَّكلُّف ، فيتعدَّى حُدُودَ الذَّوْق ، وإلاَّ فإنَّ حُسْنَ المَنْطق ، وروعةَ التَّعبيرِ من مظاهر المروءة الصَّادقة ، ومن أعظم الأسبابِ الدَّاعية لقَبُولِ الحقِّ ، بل هذا هو السِّحْرُ الحلالُ ، قالَ عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – لرجلٍ سأله حاجةً ، فأحسن المسألةَ ، فأعجبه قولُه : «هذا – واللهِ – السِّحْرُ الحلالُ »[٢] .

وقال ابنُ الرُّوميِّ – وأَحْسَنَ – :

وَحَدِيثُها السِّحْرُ الحَلالُ ، لَوْ انَّهَا ... لَمْ تَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ
إنْ طَالَ لَمْ يُمْلِلْ ، وَإنْ هِي أَوْجَزَتْ ... وَدَّ المُحَدَّثُ أَنَّهَا لَمْ تُوجِزِ
شركُ العُقُولِ ونُزْهَةٌ مَا مِثْلُهَا ... لِلسَّامِعِيْنَ، وعقلة المستوفزِ
دَرَرٌ تَعِيشُ الآذانُ في نَغَمَاتِهَا ... بمطرزٍ عَذْبٍ وغَيرِ مطرَّزِ[٣]

وقال إبراهيمُ بْنُ العيَّاشِ :

إذا مَا الفكْرُ ولَّدَ حُسْنَ لَفْظٍ ... وأَسْلَمَهُ الوُجُودُ إلى العِيَانِ
ووَشَّاهُ[٤] فَنَمْنَمَهُ جَوَّادٌ ... فَصِيحٌ في المَقَالِ بلا لِسَانِ
تَرَى حُلَلَ البَيَانِ مُنَشَّرَاتٍ ... تَجَلَّى بينها صُوَرُ المَعَانِي

---

(١) « فيض القدير » للمنَّاوي (٢/٢٨٣) .
(٢) « كتاب الصناعتين » لأبي هلال العسكريِّ (ص٦٧) .
(٣) « الأمالي » (١/١١٥)، و« نهاية الأدب » (٢/٧١)، و« أدب المجالس » لابن عبد البرِّ (ص٤٦) .
(٤) وشَاهُ : نقشه وزيَّنه.

قال قُدامَةُ بنُ جَعْفَرٍ : « ومن الأوصاف التي إنْ كانت في الخطيبِ سُمِّي سديداً ، وكانَ العَيْبُ معها بعيداً - أنْ يكونَ في جميعِ ألفاظه ومعانيه جارياً على سَجيَّته، غيرَ مُسْتَكْرِه لطبيعته ، ولا مُتَكلِّف ما ليس في وُسْعه ، فإنَّ التكلُّفَ إذا ظهر في الكلام هجَّنه ، وقبَّح موقعَهُ ، وحَسْبُكَ من ذَمِّ التَكَلُّف أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - أمر رسولَه - ﷺ - بالتَّبرُّؤ منه ، فقال : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : ٨٦] »[1] .

والتعبيرُ يَدْخُلُ في الإنشاءِ ، وَحَسْبُكَ - أخي الخطيبَ - منه :

١- التفنُّن .

٢- متانةُ الأسلوبِ .

٣- الاقتباسُ .

(١) « نقد النَّثْرِ » (ص١٠٤ - ١٠٥) .

٩- الأسلوب

لا شكَّ أنَّ الأُسلوبَ البلاغيَّ بَحْرٌ لا ساحلَ له ، ومُحيطٌ بعيدُ الأعماق ، ولنْ أتحدَّثَ إلاَّ عن الأوصاف التي هي خاصَّةٌ بالأسلوب الخطابيِّ .

والأسلوبُ الخَطَابيُّ: هو أنْ يعمدَ الخطيبُ - بعدَ استحضارِه المعانيَ - إلى الألفاظ التي يريدُ أداءها بها، فيفرغ المعنى في قالبٍ يُناسبه، فالمعاني الجزْلةُ لابُدَّ لها من جُملٍ وتراكيبَ في غاية الفخامة والضَّخامة، والمعاني الرَّقيقةُ لابُدَّ لها من ألفاظٍ تُناسبها رقَّة وسلاسةً؛ ليحصلَ التَّشاكل، والقرآن الكريم أعدلُ شاهدٍ على التَّفنُّنِ في مَتَانة الأسلوب، وحُسْنِ السِّيَاق، وعُذُوبة الألفاظ، ودقَّة المعاني، وما تراه عند ذكْرِ الرَّحمة والمغفرة، وما استعملَ معه من رقيق العبارة مع تَمَامِ الانسجامِ بين المعاني والألفاظ، وما تراه من جزالة التراكيب عندَ ذكْرِ العذاب على عذوبته في الفَهْمِ، ولَذَاذَته في السَّمْع، فمثال الأول: كقوله تعالى: ﴿ نبِّئْ عبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الحجْر : ٤٩]

فتأَمَّل هذه الآية المتضمِّنة لرجاء عَفْوِ الله ورحمته ، كيف اشتملت على رقيقِ الألفاظ ، ولطيفِ المعاني المُشوِّقة للتَّشويق ؟! .

ومثال الثاني : كقوله - تعالى - : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجْر : ٥٠]

وتَأَمَّلْ - أيضًا - هذه الآيةَ الكريمةَ المتضمِّنةَ ذكْرَ العذاب ، تجدْ ألفاظَهما - على ما فيها من الضَّخامة الملائمة لجزالة المعنى المقصود منها - سَهْلَةً مُسْتَعْذَبَةً .

كلامٌ كَسَتْهُ بَهْجَةُ الحُسْنِ رَوْنَقًا هوَ السِّحْرُ، لا بَلْ جَلَّ قَدْرًا عَنِ السِّحْرِ!

وقال محمد إقبال:

حَـديثُ الرُّوحِ للأَرْواحِ يَسْـري ... وتُدْرِكُـهُ القُلُوبُ بلا عَنَاءِ
هَتَـفَت به فَطَارَ بلا جَنَاحٍ ... وشَقَّ أَنِينُهُ صَـدْرَ الفَضَاءِ
ومَـعْـدِنُهُ رُخَـامِيٌّ ، ولَكِن ... سَرَتْ في لَفْظِهِ لُغَةُ السَّمَاءِ

وها هنا فائدة في بيان جزل الألفاظ ورقيقها من غير تعريف، ذكرها ابن الأثير في «المثل السائر» قال - رحمه الله -: «اعلمْ أَنَّ الألفاظَ تَجْري مِنَ السَّمْعِ مَجْرَى الأَشْخَاصِ مِنَ البَصَرِ، فالألفاظُ الجَزْلَةُ تتخيَّلُ في السَّمْعِ كأشخاصٍ عليها مهابةٌ ووَقَارٌ، والألفاظُ الرَّقيقةُ تتخيَّلُ كأشخاصٍ ذوي دَمَاثَةٍ، ولينِ أخلاقٍ، ولطافةِ مزاجٍ؛ ولذا تَرَى ألفاظَ أبي تمَّامٍ وكأَنَّها رجالٌ قد رَكِبُوا خُيُولَهُم، واسْتَلأَمُوا[1] سلاحَهُم، وتأهَّبوا للطِّراد، وترى ألفاظَ البُحْتُريِّ وكأَنَّها نساءٌ حِسَانٌ، عَلَيْهِنَّ غَلائِلُ[2] مُصبَّغاتٌ، وقد تَحَلَّيْنَ بأصناف الحُلِيِّ، وإذا أمعنتَ نظرَكَ فيما ذكرتُه هاهنا، وجدتني قد دللتُك على الطريق، وضربتُ لك أمثالاً مناسبةً».

واعلم- أخي بارك الله فيك - أنَّ لكُلِّ مقامٍ نوعًا من الأساليب ، ولكُلِّ قومٍ خطابًا ، فالعامَّةُ يُخاطبون بعبارةٍ ساذجةٍ [3] ومُؤثِّرةٍ ، والعلماءُ بعبارةٍ منتقاةٍ ودقيقةٍ ، والشبابُ بعبارةٍ بليغةٍ متألِّقةٍ ، والشُّيوخُ بعبارةٍ رقيقةٍ ولطيفةٍ .

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تُشْغِلُهَا ... عَنِ الطَّعَامِ ، وتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ
لَهَا بوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ... وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِي
إِذَا تَشَكَّتْ كَلالَ[4] السَّيْرِ، أَسْعَفَهَا ... شَوْقُ القُدُومِ ، فَتَحْيَا عِنْدَ مِيعَادِ

---

(١) **اسْتَلأَمَ** : لبس اللأمة ، وهي درعٌ يُلبس في الحرب ، جمعها لُؤَمٌ .
(٢) **غَلائل** : جمع غلالة ، وهي الشعار الذي يلبس تحت الثوب الظاهر .
(٣) **ساذَجَة** : أي غير بليغة .
(٤) **الكَلال** : الإعياء والتَّعب .

١٠- الشِّعْرُ

لا شكَّ أنَّ خطابَ النَّاسِ – ولا سيَّما الشَّبَابُ – قائمٌ على حقيقةٍ نفسيَّةٍ، تُؤكِّدُ مَيلَهُم إلى حُبِّ الجمال ، والشِّعْرُ مُشْتَمِلٌ على الجمالِ الرَّائعِ الذي يُحرِّكُ المشاعرَ ، والمعاني اللَّطيفةِ التي تهزُّ أوتارَ القلوبِ ، وتَمُدُّ الخَطَابَةَ بمناحي التأثير .

قال عُمَرُ بْنُ الوَرْديُّ :

انْظِمِ الشِّعْرَ ، ولازِم مَذْهَبِي ... في اطِّرَاحِ الرِّفْدِ[1] ، فالدُّنْيَا أَقَلّ
فَهُوَ عُنْوَانٌ عَلَى الفَضْلِ ، ومَا ... أَحْسَنَ الشِّعْرَ ، إذَا لَمْ يُبْتَذَلْ!

وليس هناك ما يمنع من استنشاد الشِّعْرِ في المسجد، وفي الخُطْبة –أيضاً–.

فعن عبد الرحمن بن عَوْفٍ أنَّه سمع حَسَّانَ بْنَ ثابتٍ يَسْتَشْهِدُ أبا هريرة : أَنْشُدُكَ اللهَ ، هل سمعت النَّبيَّ – ﷺ – يقول : « يا حسَّانُ ، أَجِبْ عن رسولِ اللهِ – ﷺ –، اللَّهمَّ أَيِّدْهُ بِرُوْحِ القُدُسِ» ؟. قال أبو هريرة: «نَعَمْ»[2] .

قال الحافظ ابْنُ حجرٍ :

« وفي التِّرمذيِّ مِنْ طريقِ أبي الزِّنَاد ، عن عُرْوَةَ ، عن عائشةَ قالتْ : «كان رسولُ اللهِ – ﷺ – ينصبُ لحسَّانَ مِنبَرًا في المَسْجِدِ ، فيقومُ عليه ، ويَهْجُو الكُفَّارَ »[3] .

وذكر المُازريُّ في « الأطراف » أنَّ البُخَاريَّ أخرجه تعليقًا ، وأتمَّ منه ، لكن

---

(١) **الرِّفْد** : العطاء والصِّلة .
(٢) أخرجه البخاريُّ في الصَّلاة (٤٥٣) .
(٣) جامع الترمذي ، كتاب الأدب (٢٨٤٦) .

لم أره فيه . قال ابن بطَّالٍ : ليس في حديث الباب أنَّ حسَّانَ أنشدَ شعْرًا في المسجد بحَضْرَة النَّبيِّ - ﷺ - ، لكن رواية البخاريِّ في بَدْء الخَلْق [١] من طريق سعيد تدلُّ على أنَّ قولَه - ﷺ - لحسَّان : « أجبْ عَنِّي » كان في المسجد، وأنَّه قَدْ أنشدَ فيه ، فأجابَ المشركين ، وقال غيره يحتمل أنَّ البخاريَّ أراد أنَّ الشِّعْرَ المشتمِلَ على الحقِّ حقٌّ بدليل دعاء النبيِّ - ﷺ - لحسَّانَ عَلَى شعْرِه ، وإذا كان حَقًّا جاز في المسجد كسائر الكلام الحقِّ ، ولا يمنعُ منه كما يمنع من غيره من الكلامِ الخبيث ، واللَّغْوِ السَّاقط . قلتُ : والأوَّلُ أليقُ بترجمة البخاريِّ ، وبذلك جزَم المازريُّ ، وقال : إنَّما اختصر البخاريُّ القصَّةَ لاستشهارها ، ولكونه ذكرها في موضعٍ آخرَ ، وأمَّا ما رواه ابن خزيْمَةَ في صحيحه ، والتِّرمذيُّ وحسَّنه من طريق عَمْرو بْنِ شُعَيبٍ عن أبيه عن جدِّه قال : « نَهَى رسولُ الله - ﷺ - عَنْ تَنَاشُدِ الأشعارِ في المسجد » ، وإسناده صحيحٌ إلى عَمْرٍو ، فَمَنْ يُصَحِّحْ نسخه يصحِّحه ، وفي المعنى عدَّة أحاديث، لكن في أسانيدها مقالٌ ، فالجمعُ بينَهَا وبَيْنَ أحاديث الباب ، أنْ يُحْمَلَ النَّهْيُ على تَنَاشُدِ أشعارِ الجاهلين والمُبْطلين ، والمأذون فيه ما سَلِمَ مِنْ ذلك » [٢] .

فتبين لك - أخي في الله - أنَّه لا بأسَ من استنشاد الشعرِ في خطبَة الجمعة، وقد سُئلَ العلاَّمة ابن باز - رحمه الله - هل الاستشهاد ببعضِ الشِّعر في خُطبة الجمعة مما يحثُّ على مكارِمِ الأخْلاقِ والجهاد في سبيلِ الله أمر مشروع؟

الجواب : لا شكَّ بذلك، يقول النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ من الشِّعْرِ لحكمة» وكان النَّبيُّ ﷺ ينشدُ معَ الصَّحابَةِ وهم يبنون المسجد ، ينشدُ معهم عليه الصلاة والسلام:

---

(١) «صحيح البخاريِّ» كتاب بَدْءِ الخَلْقِ (٣٢١٢) .
(٢) الفتح (٦٥٢/١) .

والله لولا الله مـــا اهتـــدينا ولا تصـــــدَّقْنا ولا صلَّينا
فـــأنزل سكينة علينا وتبِّتْ الأقْـــدامَ إنْ لاقـــيْنا
إن الأولى قـــد بغـــوا علينا إذا أرادوا فـــــتنةً أبَيْنا

كان رافعًا بها صوته يقول: «أبينا، أبينا، أبيْنا» كما أنه عليه الصلاة والسلام أنشدهم وهم يحفرون الخندق.

فالمقصود: إنَّ إنشاد الشعر الحق الطَّيِّب في الخطب والمواعظ والمحاضرات وخطب الجُمُعة ولاأعياد لا بأس به؛ لأنه يُؤثر ويحصل به خير عظيم»[١].

وكما أنَّ الشِّعْرَ يحرِّكُ المشاعرَ، ويُخاطبُ العواطفَ، ويتركُ في النَّفْسِ تأثيراً، ولكن لا يُستحسنُ الإكثارُ منه في الخُطْبَة؛ لأنَّ الأصلَ الاقتصارُ على نُصُوصِ الوَحْيَيْنِ الشَّريفين، ولأنَّه لم يُعْهَدْ في خُطَبِ النبيِّ - ﷺ -، ولا في خُطَبِ الصَّحابة - الاستشهادُ بالشِّعْرِ، ولم يُعْهَدْ إلا في القرنِ الرَّابعِ، وقد جَرَى الاستشهادُ مِنْ بَعْدِ القَرْنِ الرَّابعِ وحتى اليوم مِنْ غَيْرِ إنكارٍ فيما نعلم.

رِفْقًا بقَلْبِي - يا خطيبُ - فَإنَّني بَشَـرٌ، وَهَذَا السِّـحْـرُ يَخْلبُ عَـيْني
قَتْلُ المُحِبِّ يَجُوزُ في شَرْعِ الهوى لَوْ كَانَ دِيْنُكَ في الصَّبَابَةِ[٢] دِيْني

---

[١] جريدة «المدينة» العدد (٩١٧٠) (ص١٢) الثلاثاء ١٤١٢/١٢/٢٢هـ.
[٢] **الصَّبابة - بفتح الصَّاد** -: شدَّة الحبِّ والولع، وحرارة الشَّوق، ورقَّة الهوى.

١١- السَّجْع

السَّجْعُ : هو توافُقُ الفاصلتين في الحرف الأخير تشبيهاً له بسَجْعِ الحمامة إذا هدرت ، وموطنه النَّثر ، وقد يجيء في الشِّعْر: كقول أبي الطيِّب :

فَنَحْنُ في جَذَلٍ ، والرُّوْمُ في وَجَلٍ والبَرُّ في شُغُلٍ ، والبَحْرُ في خَجَلِ

وأفضلُ السَّجْعِ ما تساوتْ فقرُه [١] ، وتسكَّنُ الفاصلةُ - دائماً -[٢] في النَّثْرِ للوقف، ولا بأسَ من إيراد بعْضِ السَّجْعِ بشروطٍ ، منها :

أ - ألاَّ يظهر التكلُّف له، وإلاَّ ثَقُلَ، وضَعُفَ تأثيرُهُ :

قال الله - سبحانه وتعالى - :﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : ٨٦] .

وقال عُمَرُ بْنُ الخطَّاب - رضي الله عنه - : « نُهينا عَنِ التَّكلُّف » [٣] .

وعن المغيرة بْنِ شُعْبَةَ - رضي الله عنه - قال: ضَرَبَتْ امرأةٌ ضُرَّتَهَا[٤] بعمود فسطاط، وهي حُبْلَى في بَطْنها فقتلتها، فجعلَ رسولُ الله - ﷺ - دِيَةَ المقتولة على عَصَبَةِ القاتلة، وغُرَّةً [٥] لما في بطنها فقال رجلٌ مِنْ عَصَبَةِ القاتلة: كيف نَدِي[٦] - يا رسولَ الله - مَنْ لا شَرِبَ، ولا أَكَلَ، ولا نَطَقَ ولا اسْتَهَلَّ؟! فمثل ذلك يُطل، فقال النَّبيُّ - ﷺ -: «سجع كسَجْعِ الكُهَّان من أجل سجعه» [٧] .

قال النَّوويُّ - يرحمه الله - : « قال العلماء : إنما ذمَّ سَجْعَهُ لوجهين: أحدهما - أنَّه عارض به حُكْمَ الشَّرْعِ، ورامَ إبطالَه ، والثَّاني - أنَّه تكلَّفه.

---

(١) **فقر** : جمع فقرة ، وهي الجملة النَّحْوِيَّة هنا .
(٢) **الفاصلة** : هي الكلمة الأخيرة من كل فقرة.
(٣) رواه البخاري (١٣/٢٢٩) .
(٤) **الضرة** : واحدة الضرائر، وهنَّ زوجات الرجل .
(٥) **غُرَّة** : عبداً أو أَمَةً .
(٦) **ودى يدى** : أعطى الدِّيَةَ .
(٧) رواه مسلم (١٦٨١) .

وهذان الوجهان من السَّجْعِ مذمومان .

وأمَّا السَّجْعُ الَّذي كانَ النَّبيُّ -ﷺ- يقولُهُ في بَعْضِ الأوقات - وهذا مشهورٌ في الحديثِ - فليس مِنْ هذا ؛ لأنَّه لا يُعارضُ بِهِ حُكْمَ الشَّرْعِ، ولا يتكلَّفُه » [١] .

ب - أن يكون قليلاً ؛ لأنه حلْيَةٌ. ويكفي من القلادةِ ما أحاط بالعُنُقِ :

قال ابن الأثير - رحمه الله - : « يَنْبَغي أنْ تكونَ الألفاظُ المَسْجُوعةُ حُلْوَةً حادَّةً طنَّانةً رنَّانةً لا غثَّةً ولا باردةً ، وأعني بقولي : غثَّة باردة أنْ يكونَ صاحبُها يصرفُ نَفْسَهُ إلى السَّجْع نفسه من غير نَظَرٍ إلى مفردات الألفاظ المَسْجُوعة ، وما يُشْتَرَطُ لها من الحُسْنِ ، ولا إلى تركيبها ، وما يُشْتَرَطُ له من الحُسْنِ ، وهو في الذي يأتي من الألفاظ المسجوعة كمن ينقشُ أبوابًا من الكَرَاسف [٢] ، أو ينْظِمُ عِقْدًا من الخَزَفِ [٣] المُلَوَّن ، وهذا مقامٌ تَزِلُّ عنه الأقدامُ ، ولا يستطيعُهُ إلاَّ الواحدُ من أرباب هذا الفنِّ بعدَ الواحد ؛ ومن أجلِ ذلك كانَ أربابُهُ قليلاً ، فإذا صَفَا الكلامُ المَسْجُوعُ من الغَثَاثَة ، فإنَّ وراءَ ذلك مطلوبًا آخرَ ، وهو أنْ يكونَ اللَّفْظُ فيه تابعًا للمعنى ، لا أنْ يكونَ المعنى فيه تابعًا للَّفْظ ؛ فإنَّه يجيء عند ذلك كظاهرٍ مُمَوَّهٍ على باطنٍ مُشَوَّهٍ ، ويكون مثلُهُ كَغِمْدٍ [٤] مِنْ ذَهَبٍ على نَصْلٍ [٥] مِنْ خَشَبٍ » [٦] .

وَمَنْطِقٍ كَضِيَاءِ الشَّمْسِ ، تَحْسَبُهُ ... مِنْ حُسْنِهِ سِحْرَ هَارُوتَ وَمَارُوتِ

يَدِبُّ فِي الجِسْمِ مِثْلَ البُرْءِ، لَوْ نُظِمَتْ ... أَلْفَاظُهُ قُلْتَ: هَذَا عِقْدُ يَاقُوتِ!

---

(١) «شرح النَّوويّ على مسلم» (١٩١/١١) .

(٢) **الكَراسف** : جمع كُرسف ، وهو القُطْن .

(٣) **الخَزَف** : الطِّين غير المحروق .

(٤) **الغِمْد** : غلاف النَّصْل، جمعه أغماد.

(٥) **النَّصل** : حَديدة السَّيف ، جمعه أنْصُل، ونِصَال .

(٦) « المثل السائر » لابن الأثير .

وقال قُدامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ : « ومن أوصاف البلاغة - أيضًا - السَّجْعُ في مَوْضعه ، وعند سماحة القريحة به ، وأنْ يكونَ في بعضِ الكلامِ لا في جميعه؛ فإنَّ السَّجْعَ في الكلامِ كمثلِ القافية في الشِّعْرِ - وإن كانتْ القافيةُ غيرَ مستغنىً عنها ، والسَّجْعُ مُستغنىً عنه - ، فأمَّا أنْ يلزمَهُ الإنسانُ في جميعِ قولِه، ورسائله، وخُطَبِه، ومناقلاته - فذلك جَهْلٌ من فاعله ، وعِيٌّ من قائله» .

إلى أن قال : « ولو كانَ لزومُ السَّجْعِ في القولِ ، والإغرابِ فيه وفي اللَّفْظِ هو البلاغة - لكان اللهُ - عزَّ وجلَّ - أَوْلى باستعمالها في كلامه الذي هو أفضلُ الكلامِ ، ولكان النَّبيُّ - ﷺ - ، والأئمَّةُ المهديُّون قد استعملوها ، ولَزِموا سبيلَهما ، وسَلَكُوا طريقَهُما ، فأمَّا ولَسْنا واجدين فيما في أيدينا من كلامهم استعمالَ السَّجْعِ والغريبِ إلا في المواضعِ اليسيرة ، فهم أَوْلى بأنْ يُقْتَدى بهم، ويُحْتَذى بمنهاجهم ممَّن قد نبتَ في هذا الوقتِ مِنْ هؤلاءِ الَّذين ليس معهم من البلاغة إلاَّ ادِّعاؤُها، ولا من الخَطَابة إلا التَّحلِّي باسمها »[١] .

فتبيَّن لك - أخي الخطيب - من خلال ما سَبَقَ أنَّ الإكثارَ مِنَ السَّجْعِ في أثناءِ الخُطْبَة هو خلافُ هَدْيِ السَّلَفِ المُقْتَدى بهم ، ومِمَّا يُكْرَهُ مِنَ السَّجْعِ السَّجْعُ في الدُّعاء ، فقد أوصى عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ مَوْلاهُ عِكْرِمَةَ وَصِيَّةً ، قال في آخرها : « وانْظُر السَّجْعَ مِنَ الدُّعاءِ فَاجْتَنِبْهُ ؛ فإنِّي عَهِدْتُ رسولَ اللهِ -ﷺ- وأصحابَهُ لا يفعلون إلاَّ ذلك الاجتنابَ »[٢] .

قال الحافظ ابْنُ حجرٍ : «قال الغزاليُّ : المكروهُ من السَّجْعِ هو المُتَكَلَّفُ ؛ لأنَّه لا يلائم الضَّراعةَ والذِّلَّة ، وإلاَّ ففي الأدعيةِ المأثورةِ كلماتٌ متوازيةٌ ، لكنَّها غيرُ مُتَكَلَّفَةٍ »[٣] .

---

(١) « نَقْدُ النَّثْرِ » لقدامة بن جعفر (ص١٠٧) .
(٢) رواه البخاريُّ في الدَّعوات (٦٣٣٧) .
(٣) «فتح الباري» (١١/١٣٩) .

١٢- الأهْوَاءُ والمُيُولُ

لابُدَّ للخطيب أنْ يُوَجِّهَ خِطَابَهُ نَحْوَ العَقْلِ والوِجْدَانِ ، فيُخاطبُ العقلَ بالدلائلِ والبراهينَ ، ويُخاطبُ الوِجْدَانَ باستدراجٍ لَبِقٍ ، وكلماتٍ ساحرةٍ ، وصوتٍ عَذْبٍ .

قال أحدُ علماء الاجتماع : « إنَّ الخطيبَ إذا خَاطَبَ العاطفةَ أرضى ثمانين في المائة من السَّامعين ، وأثار اهتمامَهُم » .

وقال صاحب كتاب « روح الاجتماع » : « إنَّ البراهينَ والأدلَّةَ لا تأخذُ من نفوسِ الجماعات ؛ ولهذا كانَ الخُطَبَاءُ الذين لا يعرفونَ كيفَ تتأثرُ ، إنَّما يُخاطبونَ شُعُورَها دُونَ العَقْلِ ؛ لأنَّه لا سُلْطَانَ لقواعدِ المَنْطِقِ عليها ، فلأجلِ إقناعِ الجماعةِ ينبغي الوقوفُ أوَّلاً على المشاعرِ القائمةِ بها ، والتَّظاهُرُ بموافقتِها فيها ، ثُمَّ يُحاوِلُ الخطيبُ تعديلَها بموازناتٍ صغيرةٍ عاديَّةٍ ، تُشَخِّصُ أَمَامَها صُوراً مؤثِّرةً ، وينبغي أنْ يكونَ قادراً على الرُّجوعِ القَهْقَرى ، متى وجدَ المُقْتَضَى ، وأنْ يَغْرِسَ في كُلِّ لحْظةٍ أَثَرَ كلامِهِ في نفوسِ السَّامعين ؛ حتى يُغَيِّرَ منه كُلَّما مسَّت الحاجة » .

وهذه الضَّرورةُ التي تُلْجِئُ الخطيبَ إلى سُرعة تغييرِ الكلامِ بحَسَبِ الأَثَرِ الحاصلِ في نَفْسِ السَّامعِ – هي التي تدلُّنا على ضَعْفِ الخَطَابَةِ بالكَلامِ المُحَضَّرِ مِنْ قَبْلُ ؛ لأنَّ الخطيبَ يتَّبعُ في هذا الحالة سلسلة أفكاره ، لا حَرَكَةَ فكْرِ سامعيه ، فلا يكونُ لكلامه أقلُّ تأثيرٍ فيهم ، أمَّا المناطقةُ فلأنَّهُم تَعَوَّدوا الإقناعَ بالأدلَّةِ المُسَلْسَلَةِ الدَّامغَةِ ؛ لا يمكنهم الخروجَ عَنْ عَاداتِهم هذه إذا خاطبوا الجماعات ؛ لذلك يُدْهِشُهُم – على الدَّوامِ – عدمُ تأثيرِ استدلالهم .

ومن هنا تَعْلَمُ أهميَّةَ العَاطفةِ ، وأنَّها جهازُ الاستقبالِ ، وبَيْتُ القَصِيدِ في

التأثير الخطابيِّ ، وقد ثبتَ - علمياً - أنَّ الإنسانَ يَسْأَمُ الدَّلائلَ العَقْليَّةَ والنَّقْليَّةَ - ولاسيَّما إذا كانتْ جافَّةً وعاريةً من العاطفةِ - ، لكنَّه لا يَسْأَمُ الدَّلائلَ العاطفيَّةَ ولا يَملُّها .

وهنا فوائدُ لإثارةِ الأهواءِ والميولِ ، نُجْمِلُها فيما يأتي :

أ - اعتقادُ الخطيبِ بصحةِ ما يدعو إليه :

وذلك لأنَّ قوَّةَ الاعتقادِ تُكْسِبُ الكلامَ حرارةً ، والصَّوتَ رنَّاتٍ مُؤثِّرةً ، والألفاظَ قوَّةً ، والمعانيَ رُوحًا .

قال أحدُ علماءِ الاجتماعِ : « إنَّ إيمانَ الخطيبِ كحبالِ الجاذبيةِ التي تَجْذِبُ إليه الجُمْهُورَ ، وتُوثِّقُ عُرَا التَّأثيرِ بينَهُما ، فأيُّ شكٍّ أو ضَعْفٍ في إيمانِه يقطعُ تلكَ الحبالَ ، فَيَنْفَضُّ الجُمْهُورُ مِنْ حَوْلِه » .

وقال صاحب كتاب « روح الاجتماع » في وصف الخطيب النَّاجح :

« أنْ يكونَ مَسْحُوراً بالفكْرةِ التي صَارَ إليها ، حتَّى استولَتْ على نَفْسِه استيلاءً لا يرى معه إلا ما كان منها ، وأنَّ كُلَّ ما خالفها وَهْمٌ باطلٌ » .

نَحْنُ الَّذينَ إذا دُعُـوا لِصَـلاتِهِمْ ... والحَرْبُ تَسْقِي الأَرْضَ جَامًا أَحْمَرا
جَعَلُوا الوُجُوهَ إِلَى الحِجَازِ ، وكَبَّرُوا ... في مَسْمَعِ الكَوْنِ العَظِيمِ ، وكَبَّرَا!

ب - المشاركةُ الوجدانيةُ :

قال أحدُ عُلَمَاءِ النَّفْسِ في بيانها : « إنَّها الحَالَةُ الانفعاليَّةُ أو الوجْدَانيَّةُ التي تكونُ عندَ الإنسانِ ، إذا وجد إنساناً آخرَ مُتَأثِّراً ، فتجعلُه يَشْعُرُ بِنَفْسِ شُعُورِه، كما لو انتقلَ هذا الشُّعورُ بطريقِ العَدْوَى » .

فيَجبُ على الخطيبِ أنْ يُشارِكَ الجَمَاعَةَ أَفْرَاحَهَا وأَتْرَاحَها [١] ، فيفرح

---

(١) **أتْراح** : جَمْعُ تَرَح ، وهو الحُزْن .

لفرحها ، ويحزن لحزنها ؛ فالإحساسُ المُشْتَرَكُ يجعلُهُ قادراً على إثارة ميولها ، وإصابة أهوائها ، ودَفْعها نَحْوَ المُثُلِ العُلَى .

فإذا كانتْ تعتقدُ اعتقاداً باطلاً ، فلا يُهاجمها فيما تألَفُ دُفْعةً واحدةً ، بل يُمَهِّد لما يرى ، حتى إذا واتته الفُرْصَةُ ، هَجَمَ عليها بفِكْرَتِه ، وبيَّن لها المعتقدَ الصَّحيحَ الذي يجبُ أنْ تكونَ عليه الجماعةُ .

دَعَـــاني وَاعظي للحَقِّ قُـــدُمًـــا ... وَقَـالَ: أَلاَ تَتُـوبُ عَنِ الْغَـوَانِي [١] ؟!
وَقَـالَ برأْفَـةٍ : وَجَـدْتُ طَرِيْقًـا ... إلى القَلْبِ المُعَنَّى [٢] بالأَمَـــانِي
أَجَـابَ القَلْبُ دَاعِيَـهُ ، فَـأَحْيَـا ... بِهَا جَسَداً ضَعِيْفًا ، كَـانَ وَانِي [٣]
فَـحَـمْـداً لِلَّذِي أَعْطَى نَعِيْـمًـا ... وَحَـمْـداً خَـالِقِي، يَا مَنْ هَدَانِي

جـ - اللَّذَّة والألَم :

الخطيبُ اللَّبِقُ هو الذي يستخدمُ آمالَ الأمَّةَ وأَمَانِيَهَا في إثارة أهواءِ السَّامعين ، ومتى تَعَمَّقَ الخطيبُ في دراسة لَذَّة الجماعة وآلامها ، عَرَفَ من أيِّ طريقٍ يَطْرُقُ حسَّها ، فيصلُ إلى وِجْدَانها .

قال أحَدُ السَّلف : « إنَّ للقلوب شَهَوَات ، وإقبالاً ، وإدباراً ، فَأْتوها مِنْ جانبِ شَهَوَاتِهَا وإقبالِها ؛ فإنَّ القَلْبَ إذا أُكْرِهَ عَمِيَ » .

د - الغرائز :

عرَّف عُلَماءُ النَّفْسِ الغريزةَ بأنَّها : مَيْلٌ فِطْرِيٌّ في النَّفْسِ ، يَدْفَعُ الإنسانَ لأنْ يَسْلُكَ مَسْلَكًا خاصّاً » .

---

(١) **الغَوَاني** : جمعُ غانية ، وهي الَّتي استغنتْ بحسنها عن الزِّينة والحُليّ .
(٢) **المُعَنَّى** : المتعب الحزين ، والمكلَّف ما يشقُّ عليه ، مأخوذ من عَنِيَ عناءً .
(٣) **واني** : ضعيف .

فهي سُلوكٌ فطْريٌّ يكونُ مِنْ غَيْرِ خِبْرةٍ سابقةٍ ، ويرمي إلى ما فيه مصلحةَ الشَّخْصِ أو الجِنْسِ .

والمُيولِ الغَريزيَّةَ بأنَّها : هي المُسَمَّاةُ بالأَهْوَاءِ ، وتنقسمُ إلى قسمين :

١ - أهواء النَفْسِ الشَّهْوِيَّة .

مثل : المحبَّة ، والبُغْضِ ، والرَّغْبَة ، والنُّفورِ ، والفَرَحِ ، والحُزْنِ .

٢ - أهواء النَفْسِ الغَضَبِيَّة .

مثل : الرَّجاءِ ، والقُنُوطِ ، والشَّجَاعَة ، والخَوْفِ ، والحِلْمِ ، والغَضَبِ .

فتحريكُ عاطفةِ المحبَّةِ ببيانِ مَحَاسِنِ المَحْبُوبِ ، وذِكْرِ أعمالِه الجَليلةِ ، وضِدُّ المحبَّةِ البُغْضُ .

ويكونُ تحريكُ الرَّغْبَةِ في النُّفوسِ بتعظيمِ المُرَغَّبِ فيه ، وتزيينه في عُيُونِ السَّامعين ، كالذي يُرَغِّبُ في العِلْمِ لابُدَّ له من بيانِ فوائده ، وهكذا الخطيبُ في مقامِ التَّرغيبِ عليه أنْ يسلكَ طريقَ المُقَابَلَةِ بين الأمرِ المَرغوبِ فيه والمَضَارِّ الناتجةِ عن إهمالِه ، وضِدُّ الرَّغْبَةِ النُّفورُ .

وتحريكُ عاطفةِ الفَرَحِ بذِكْرِ النِّعَمِ، ونتائجِها الحَسَنَةِ، والتَّحْذيرِ من كُفْرَانِ النِّعَمِ.

وتحريكُ عاطفةِ الحُزْنِ بذِكْرِ هَوْلِ الخَطْبِ ، وعِظَمِ المُصَابِ ، وتعديدِ مَزَايا المفْقُودِ ، وشدَّةِ المِحْنَةِ في نَحْوِ قَتْلٍ إنْ وَقَعَ ، أو جرائمَ إنْ حَصَلَتْ ، أو مَوْتٍ عظيمٍ ، وهَلُمَّ جَرّاً ، مع ظُهُورِ مَخَايلِ [1] الانفعالِ في قَوْلِه ، وملامحِ وَجْهِه ؛ حتَّى ينتقلَ تأثيرُه إلى قُلوبِ السَّامعين .

وتحريكُ عاطفةِ الرَّجاءِ بوصفِ عِظَمِ الخَيْرِ المُبْتَغَى ؛ كي يُحَبِّبَهُ إلى النُّفوسِ، وأنْ يُبَيِّنَ أنَّ الأَمْرَ المَرْجُوَّ ليس عزيزَ المَطْلَبِ ، ولا بعيدَ المَنَالِ لتوافرِ

---

(١) المَخَايلُ : العلامات .

الأسباب الصَّادقة والمشروعة المُؤَدِّيَة إلى إدراكه : كالإيمان، والأعمال الصَّالحة .

وتحريكُ عاطفة القُنُوط أَنْ يُبَيَّنَ لهم أنَّ الأَمْرَ الذي يتطلَّعونَ إليه بعيدُ المَنَال، مُعْجِزُ الدَّرْك ، تَحُولُ دُونَه مخاطرُ ومشاقٌّ .

وتحريكُ عاطفة الشَّجاعَة في ذكْر الثِّقَة بوَعْد الله .

وتحريكُ عاطفة الخَوْف أَنْ يُرهَّبَ السَّامعين بانقضاء الأَعْمَار على أَسْوَإِ الأحوال ، إنْ هُمْ تَمَادَوْا ، واستمرُّوا على ما هم عليه من العِصْيَان ، ولم ينتبهوا من غَفْلَتِهِمْ .

وتحريكُ عاطفة الغَضَب بذكْر الإهانة التي لحقَتْهُ ، أو لحقَتْ بالمسلمين ، وأنَّ ذلك لا يليقُ السُّكوتُ عليه وما إلى هذا ، مع بيانِ ضرورةِ التَّشفِّي بالانتقامِ من الظَّالم ؛ حتَّى لا يتمادَى في باطله وغَيِّه .

وتحريكُ عاطفة الحلْم يكونُ بأمورٍ ، منها الإقرارُ بالذَّنْب مع ذكْر الحلْم وفَضْلِ كَظْمِ الغَيْظ ، ووَصْف ما يَجْنِيه الحَليمُ مِنْ حُسْنِ الأُحْدُوثَة ، وهَلُمَّ جَرّاً.

ومِمَّا يُفيدُ في تحريكِ الأهواءِ وإثارةِ العواطف على الإطلاق – بعد تَمَام الإحاطة بأطراف الموضوع – أن يكونَ الخطيبُ عندَ التَّأدية متأثِّرًا بما يقولُ تأثُّرًا صحيحًا باديًا ذلك في لَهْجته ، وملامحِ وَجْهِه ؛ فالغايةُ من الخَطَابَة أَنْ ينقلَ ما في قلبِه مِنَ الإحساساتِ إلى قُلُوبِ السَّامعين ، وبذلك يبلغُ منها ما يُريدُ ، وهذا معنى قول أحد الأدباء : إنَّ الأهواءَ والعواطفَ هي الخطيبُ في الجماهير ، وقوله: السِّرُّ كُلُّ السِّرِّ أنْ يكونَ الإنسانُ مُلْتَهِبًا بالعواطف [1] .

وأخيرًا هذه بعضُ الأغْرَاضِ بالإجمالِ ، فهي مُجَرَّدُ صُوَرٍ ، وما لَمْ نَذْكُرْهُ يُقَاسُ على ما ذكرناه .

---

(١) انظر « الخَطَابة » (ص٧٩) .

هـ - بواعث الانتباه :

هي الأمورُ التي تَبْعَثُ الانتباهَ القَسريَّ ، وتَجْذبُ السَّامعينَ إلى الخطيب ، والإنصات لكلامه ، وتُوَجِّههُمْ إلى فِكْرَته ، من شأنها أنْ تبعث ميولَهُم إليه ، وتلفتُهُمْ عمَّا سواه ، وهذه الأمورُ كثيرة ، منها :

١ ـ الجدَّة : أنْ ينوِّعَ الخطيبُ أُسْلُوبَهُ منَ الاستفهامِ إلى التقريرِ إلى الطَّلَبِ وهكذا ، وهي تُكْسِبُ الكلامَ طلاوةً ورونقًا .

٢ - الغرابَةُ: وهي الإكثارُ منْ ضَرْبِ الأمْثلة الغَريبة ، والتَّشبيهاتِ البديعة.

٣ - التَّغْييرُ : وهو أنْ يُغَيِّرَ الخطيبُ من صَوْته ؛ ليكونَ فيه تنشيطٌ ، وإثارةٌ للاهتمام .

فَالطَّيْرُ يُرْسِلُ للعُشَّاقِ أُغْنيةً ... والغُصْنُ يَعْزِفُ ، والأَرْوَاحُ في طَرَبِ

في كُلِّ يَوْمٍ لَنَا عِيْدٌ بِأَرْضِهِم ... فَالسِّحْرُ والشِّعْرُ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ

و - التَّكرار والتَّوكيد :

يا لله كم للتَّكرار والتَّوكيد من تأثيرٍ في النُّفوس ، وجاذبيَّةٍ للعُقُول ، فهما قوَّةٌ إقْناعيَّةٌ ، يولِّدان في الجماعة القناعة الوجْدانيَّةَ ! .

وقد كان النَّبيُّ - ﷺ - « إذَا تكلَّمَ بكَلِمَةٍ أعَادَهَا ثلاثًا ؛ حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ» (١) .

قال أبو الطَّيِّب المتنبِّي :

فَهُوَ المُشَيَّعُ بالمَسَامِعِ ، إنْ مَضَى ... وَهُوَ المُضَاعَفُ حُسْنُهُ ، إنْ كُرِّرَا

والتَّكرارُ والتَّوكيدُ يتَّكئ عليه عُلَماءُ النَّفْسِ في عمليَّة غسلِ الأَدْمغَة ، وممَّن استخدمَ التَّكرارَ والتَّوكيدَ باحترافٍ بَعْضُ المستشرقين ، حتى إنَّ بعضَهُم قد يردِّد

---

(١) رواه البخاريُّ في العلم « بابُ مَنْ أعاد الحديثَ ثلاثًا ؛ ليُفْهَمَ عَنْهُ » (٩٤) ، و(٩٥) ، وفي الاستئذان (٦٢٤٤) ، والترمذيُّ في المناقب (٣٦٤٠) عن أنس .

شُبْهَتَهُ في الكتابِ الواحدِ عشراتِ المرَّاتِ بأساليبَ مختلفةٍ ، وكذلك ما تفعلُهُ وسائلُ الإعلامِ من تكريرِ المناظرِ لتحقيقِ أغراضِها .

وقد فطنَ لذلك عُلَمَاءُ السَّلَفِ – قديمًا وحديثًا – ، فكانوا يَنْهَوْنَ عن مجالسةِ المُبْتَدِعَةِ ، وأصحابِ الشُّبُهَاتِ ؛ لأنَّ سبيلَهُمْ قائمٌ على التِّكْرَارِ والتَّوْكِيدِ، وعلى التَّلْبِيسِ والتَّدْلِيسِ، ولعلمهم أنه متَّى تكرَّر الكلام على السَّمعِ تقرر في القلب.

قال مفضلُ بْنُ مُهَلْهِلٍ :

« لو كان صاحبُ البدعة – إذا جلستَ إليه – يُحَدِّثُكَ ببدعته ؛ حَذِرْتَهُ وفَرَرْتَ منه ، ولكنَّه يُحَدِّثُك بأحاديثِ السُّنَّةِ في بَدْءِ مَجْلسه ، ثُمَّ يُدْخِلُ عليك بِدْعَتَهُ ، فلعلَّها تلزم قَلْبَكَ ، فمتى تخرجُ من قلبك ؟! » [١] .

وقال الحَسَنُ البصْريُّ :

« لا تُمَكِّنْ أُذُنَيْكَ مِنْ صاحبِ هَوَىً ؛ فيمرضَ قلبك » [٢] .

وقال الأوزاعيُّ :

« لا تُمكِّنوا صاحبَ بدعةٍ من جِدَالٍ؛ فَيُورثَ قُلُوبَكُم من فتنتِه ارتيابًا » [٣] .

وعن سعيد بْنِ عامرٍ قال : سمعتُ جدَّتي أسماءَ تُحَدِّثُ ، قالت : «دخل رجلان على مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ من أهلِ الأهواءِ ، فقالا : يا أبا بكرٍ ، أُنحَدِّثُك بحديثٍ ؟ . قال : لا . قالا : فنقرأُ عليك آيةً من كتابِ اللهِ ؟ . قال : لا ، لَتَقومانِّ عنِّي ، أو لأَقومَنَّ » [٤] .

---

(١) « الإبانة في أصول الدِّيانة » لابن بطَّة (ص٣٩٤) .
(٢) المرجع السابق (٣٩٦) ، و«البدع والنهي عنها» لابن وضَّاح (ص٥٠) .
(٣) « البدع والنهي عنها » لابن وضاح (ص٥٣) .
(٤) رواه الدارميُّ (١٠٩/١) ، واللالكائيُّ (٢٤٢) .

وقال بعضُ أئمَّة السَّلَف : « مَنْ أَصْغَى سَمْعَهُ إلى صاحبِ بدعةٍ - وهو يعلم - نزعت منه العِصْمَة ، ووُكِلَ إلى نَفْسِه »[١] .

وقال سُفْيَانُ الثَّوريُّ :

« من سَمِعَ ببدعةٍ، فلا يَحْكِها لجُلَسَائه؛ لا يُلْقِها في قُلُوبهم »[٢][٣] .

أورده الذَّهبيُّ[٤] ، وعقَّبَ عليه بقوله :

« أكثرُ أئمَّةِ السَّلَفِ على هذا التحذيرِ ، يَرَوْنَ أنَّ القُلُوبَ ضعيفةٌ ، والشُّبَهَ خطَّافةٌ » .

وقال صاحبِ كتاب « روح الاجتماع » : « للتِّكرارِ تأثيرٌ كبيرٌ في عُقُولِ المستنيرين ، وتأثيرٌ أكبرُ في عقول الجماعات من بابٍ أَوْلى ؛ والسَّببُ في ذلك كَوْنُ المُكرَّر يَنْطَبِعُ في تجاويف المَلَكَات اللاَّشعوريَّة التي تختمرُ فيها أسبابُ أفعالِ الإنسان ، فإذا انقضى شَطْرٌ من الزَّمنِ ، ونَسِيَ الواحدُ منَّا التَّكرار ، انتهى بتصديق المُكرَّر ، وهذا هو السِّرُّ في تأثيرِ الإعلانات العجيب ، يقرأُ الواحدُ مائةَ مرَّةٍ أنَّ أحسنَ الحَلْوَى مِنْ صُنْعِ فُلانٍ ، فيُخَيَّلُ إليه - من التَّكرار - أنَّه سَمِعَ ذلك من مصادرَ شتَّى ، وينتهي باعتقادِ صِحَّةِ الخبرِ » .

وقال صاحب كتاب « الآراء والمعتقدات » : « إنَّ التَّوكيدَ والتِّكرارَ عاملانِ قويَّانِ في تكوينِ الآراءِ وانتشارِها ، وإليهما تستندُ التَّربيةُ في كثيرٍ من المسائلِ ، وبهما يستعينُ رجالُ السِّياسةِ والزُّعماءُ كُلَّ يومٍ في خُطَبِهم ، ولا

---

(١) « سير أعلام النبلاء » للذهبيِّ (٢٦١/٧) عن سفيان الثَّوريِّ ، وفي « شرح أصول الاعتقاد » (٢٥٢) عن محمد بن النضر الحارثي ، وكذا في « تلبيس إبليس » (ص٤٨) .

(٢) «شرح السنة» للبغويِّ (٢٢٧/١) ، و« الأمر بالاتباع » للسيوطي (ص٧٤) .

(٣) هذا يدلُّ على أنَّ سلفنا الصَّالحَ كان عندهم إلمام بسياسة النفوس ، فكانوا في تعاملهم مع النفس البشريَّة - باعتبارهم محلاً للتزكية والتصفية ، بفطرتهمَ الرَّبَّانية - قد سبقوا علماء النَّفسِ سبقًا بعيدًا، وذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء .

(٤) «سير أعلام النبلاء » (٢٦١/٧) .

يحتاجُ التَّوكيدُ إلى دليلٍ عقليٍّ يدعمُهُ ؛ وإنَّما يقتضي أنْ يكونَ وجيزاً حماسيّاً، ذا وَقْعٍ في النَّفْسِ » .

ومع أنَّ التِّكرارَ والتَّوكيدَ يُؤَدِّيَان إلى نتيجةٍ واحدةٍ ، ولكُلٍّ مقامٌ خاصٌّ به ، فالتِّكرار أوْلى في مقامِ الإطناب ، والتَّوكيد أَوْلى في مقامِ الإيجاز ، ويجبُ أنْ يُلاحظَ في التِّكرارِ أنْ يكونَ بعباراتٍ وأساليبَ مُختَلفةٍ ، وأَنْ يكونَ النَّظرُ فيه إلى المعنى من جوانبَ مُتَعَدِّدَةٍ (١)

قـــالوا : تُكَرِرُ ، قُلْتُ : أَحْلَى ... عـلـمـــــاً مّـنَ الأَرواحِ أَغْـلَـى
فَـإِذَا ذَكَـــرْتُ مُـحَـمَّـــداً ... قـــال المَلأُ : أَهْلاً وسَـــهْـــلا .

(١) انظر « الخطابة » (ص٨١) .

١٣- البَدَاهَة

البداهةُ: هي الارْتجَالُ والقولُ من غير تفكُّرٍ، وإنْ كانت الإصابةُ -غالبًا- في الرويَّة، وإطالة الفكْرة، كما قالَ عبدُ اللهِ بْنُ واهب الراسي : « دَعُوا الرَّأْيَ حتَّى يَخْتَمِرَ؛ فلا خيرَ في الرَّأْي الفطير، والقولِ القضيب [١] » .

وقالِ المنصورُ لكاتبه : « لا تُبْرِمْ أَمْرًا حتى تتفكَّرَ؛ فَإِنَّ فِكْرَةَ العاقلِ مِرْآتُهُ، تُرِيهِ حُسْنَهُ مِنْ قُبْحِه » .

وقالَ ابْنُ الرُّومِيِّ :

إنَّ الرَّوِيَّةَ نارُ الجِـدِّ منضـجـةٌ ... وللبَـدَاهَـة نـارٌ ذاتُ تَـلْـويـحِ

وقَـدْ يُفـضِّلُـهـا قـومٌ لعـاجلِهـا ... لكنَّهُ عـاجلٌ يَمْـضِي مَعَ الـرِّيـحِ

والارتجالُ قَدْ يحتاجُ إليه الخطيبُ ، فقد يُطْلَبُ منه أنْ يَخْطُبَ ، ولم يكنْ قَدْ أعدَّ للخُطْبة عُدَّتَهَا ، فيكونُ أَمَامَ خيارَيْنِ :

الأول - إمَّا أَنْ يَرْتَجِلَ خُطْبةً تُناسبُ المقامَ ، والحالَ ، والمكانَ ، والزَّمانَ .

الثَّاني - وإمَّا أنْ يُلْقِيَ عليهم خُطْبةً ، قد سَبَقَ أَنْ أُلقيَتْ في مكانٍ آخرَ.

فإنْ لم تُسْعِفْهُ بديهةٌ حاضرةٌ ، وخاطرٌ سريعٌ ، ومِرَانٌ على الارتجالِ طويلٌ - ضاع هو وما يدعو إليه .

وقد كان العَرَبُ ومَنْ بعدَهم يرْتَجِلُونَ الخُطَبَ ارتجالاً ، قال الجاحظُ في وصفهم : « وكُلُّ شيءٍ للعربِ فهو بديهةٌ وارتجالٌ ، وكأنَّه إلهامٌ ، وليستْ هناك مُعَاناةٌ ، ولا مُكَابدةٌ ، ولا إجالةُ فكْرٍ ، ولا استعانةٌ ؛ وإنَّما هو أنْ يصرفَ وهمَه إلى الكلامِ ، وإلى الرَّجزِ يومَ الخِصَامِ ، أو حين أنْ يَمْتَحَ على رأسِ بِئْرٍ ،

---

[١] **الرَّأي الفطير** : هو الذي لا ينضج. **والقول القضيب**: هو المرتجل. انظر «زهرة الأدب» (١/١٥٤).

أو يَحْدُوَ [١] ببعيرٍ ، أو عند المُقَارَعَة ، أو المناقلة ، فما هو إلا أنْ يصرفَ وهمَهُ إلى جُملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصدُ ، فتأتيه المعاني إرسالاً ، وتنثالُ إليه الألفاظُ انثيالاً ، ثُمَّ لا يُقَيِّدُهُ على نفسه ، ولا يُدَرِّسُهُ أَحَدًا من وَلَده، وكانوا أُمِّيِّينَ لا يكتبون ، ومَطْبُوعين لا يتكلَّفون ، وكان الكلامُ الجَيِّدُ عندهم أظهرَ وأكثرَ ، وهم عليه أَقْدَرُ وأَقْهَرُ ، وكُلٌّ عليهم أَسْهَلُ ، وهو عليهم أَيْسَرُ من أنْ يفتقروا إلى تحفُّظٍ ، أو يَحْتَاجوا إلى تَدَارُسٍ ، وليسوا كمَنْ حفظَ علْمَ غيْرِه ، واحْتَذَى كلامَ مَنْ كان قَبْلَهُ ، فلم يَحْفظوا إلاَّ ما عَلِقَ بقلوبهم ، والتحم بصُدُورهِمْ ، واتَّصَلَ بعُقُولِهم مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ ، ولا قَصْدٍ ، ولا تحفُّظٍ ، ولا طَلَبٍ » [٢] .

خيانةُ البديهة في أوقات الارتجال :

قال قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ : « وينبغي له أنْ يتَّقيَ خيانةَ البديهة في أوقات الارتجال ، ولا يَغُرَّه انقيادُ القَوْلِ له في بعضِ الأحوالِ ، فيركبَ ذلك في سائرِ الأوقات ، وعلى جميعِ الحالات ، فإنْ وَثِقَ بانقيادِ القولِ له، ومسامحته [٣] إيَّاه، فأتى بالبديهة بما يأتي به غيْرُه بَعْدَ الرَّوِيَّة – فذلك الخطيبُ الَّذي لا يُعَادِلُهُ خطيبٌ ، والأديبُ الذي لا يُوازِنُهُ أديبٌ ، وبذلك وصف الشَّاعرُ بعضَهم ، فقال:

قَهَرَ الأُمُورَ بَدِيهَةً كَرَوِيَّةٍ مِنْ غَيْرِهِ ، وَقَرِيحَةً كَتَجَارِبِ [٤] .

(١) الحداءُ : الغناءُ للأبل لسوقها وحثّها عَلَى السَّير .
(٢) « البيان والتبيين » .
(٣) أي مساهلته ومواتاته .
(٤) « نقد النثر » (ص١١٠) .

١٤- الختام

الختامُ : هو آخرُ ما ينْتَهي إلى آذانِ السَّامعين من كلامِ الخطيبِ ، ويُسَمَّى حُسْنَ المقطعِ .

وكما يكون التَّأَلُّقُ في المطلعِ، تكونُ البَرَاعَةُ في المَقْطَعِ ؛ إذْ هو آخر ما يتردَّدُ صَدَاهُ في قلوب السَّامعين .

وأجملُهُ ما آذَنَ [١] بانتهاءِ الكلامِ ، بأنْ يُشيرَ الخطيبُ في كلامِهِ إلى ما يُشْعِرُ بانتهاءِ الغَرَضِ .

وأمثلةُ حُسْنِ الختَامِ كثيرةٌ في الكتابِ، والسُّنَّة ، وكلامِ البُلغَاء ، وانظرْ في خواتيم السُّوَرِ ، تجدْهَا غايةً في الحُسْنِ ، ونهايةً في الإبداعِ ، فقد جاءت متضمِّنَةً للمعاني البديعة مع إيذان السَّامعِ بانتهاءِ الكلامِ ، حتَّى لا يبقى معه للنفوس تَشَوُّقٌ إلى ما يُذْكَرُ بَعْدَهُ [٢] .

وَرَصَّعْتَ فيهِ الدُّرَّ ، حَتَّى تَرَكْتَهُ ... يُضيءُ بلاَ شَمْسٍ ، وَيَسْري بلاَ قَمَرْ
فَعَيْنَاهُ سحرٌ ، والجَبِينُ مُهَنَّدٌ [٣] ... وَلَلَّهِ دَرُّ الرَّمْشِ، والجِيْدِ [٤] والحورْ!

---

(١) **ما آذَنَ** : أي أَعْلَمَ .
(٢) انظر : « فنّ الخطابة » (ص٥٧- ٥٨) .
(٣) **المُهَنَّد** : السيف الهندي .
(٤) **الجِيد** : العنق .